

من سَدَنَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْخَالِدِينَ ... شَوْقِي ضَيْف ؟!

أ.د. ياسر إبراهيم الملاح

(١) مقدمة :

لا خلاف في أن اللغة ظاهرة اجتماعية يَشْتَرِكُ في صناعتها المُجْتَمَعُ كله، غير أن الفرد الواحد أحيانا قد يُقدِّمُ للغة، من النمو والحُسْنَى، ما لا يقدمه جيلٌ أو أجيال. ولعل، من هؤلاء الذين يخدمون تقدم اللغة، ونموها، وازدهارها، الكتاب والشعراء. ولئن اختلفت ميادين الكتاب وتخصصاتهم فإن كلا منهم يقدمُ للغة ما يقدمه في مجاله الذي أبدع فيه، والحقل العلمي الذي تخصص فيه، بحيث لا يمكن لواحد منهم أن يُلغِيَ الآخر، لأن أعمالهم جميعا تتكامل وتتضافرُ لصناعة القامة اللغوية المتطاولة على مدار الأعوام والأجيال. وإذا تخيلنا أن اللغة شجرة باسقة تتطاول أفنانها في عنان الكون البديع أجيالا تتلوها أجيال، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وكذلك من عليها، وتمتد جذورها في أعماق الزمان المتدلي إلى بدايات الخليقة، أدركنا ما لهذه الآية البديعة من قيمة، وهو ما لا يختلف عليه اثنان عاقلان، وما لها من منزلة في خدمة الإنسان، وفي حيوية خلافته على وجه الأرض. ولأن الإنسان أعظم مخلوق على وجه الأرض، ولأنه بفضل الله، تبارك وتعالى، أدرك مسؤوليته في بناء هذا الكون، وما فيه من ظواهر مهمة للحياة، كان للفرد اليد الطولى في بناء الظاهرة اللغوية وإغنائها، بما يضمن لها التقدم والازدهار، بحيث تكون الآلة الأولى في صناعة الحضارة الإنسانية.

وانطلاقا من هذا التصور، أقدمت على إعداد هذا البحث، لأبين الدور الذي قام به أستاذنا الدكتور شوقي ضيف، رحمه الله، في خدمة اللغة العربية، وتطاول صرحها الفكري والأدبي والإبداعي، وفاءً له، وتقديرا لإخلاصه، وترسيخا لمنهج الأَخْلَاقِي والتربوي الذي نهلنا منه وعللنا، حتى أصبح منهجنا الذي ترسَّمناه في حياتنا العلمية والتربوية، وإن كان بيننا وبينه ما بين السفح وبين القمة الشامخة. ولعل في ما نقدمه عن هذا العالم الجليل دعوة الأجيال بعامة، وطلبة اللغة العربية بخاصة، إلى أن يقتدوا بهذا الجهد الذي تعجز عن صناعته أجيال بأكملها، ولم يكن هذا العطاء الوفير الخير من أستاذنا، إلا لأنه آمن بالله وأحب رسوله، واعترف بجميل قافلة الخير التي تبعتها، واقتدت به، واهتدت بهديه إلى يومنا هذا، وإلى أن تقوم الساعة، لأنها صنعت أمة كانت خير أمة أخرجت للناس، فأحب أستاذنا هذه الأمة، وحمد الله وأثنى عليه، لأنه أكرمه بانتمائه إليها، فأحب أن يقوم بواجبه تجاه من أحب، فكان الميدان الذي أظهر فيه قدرته الكبيرة ميدان اللغة العربية، فوقى لها حقها، وكان بذلك من أنبل أبنائها قولا وعملا. ولئن كان من الصعب اختزال ما قدمه أستاذنا للغة العربية في هذه المقالة المختصرة، أو البحث المختصر، فإن عزاءنا أن مسافة الميل أو الأميال إنما تبدأ بخطوة واحدة.

(٢) من الرجل؟

ولد أحمد شوقي ضيف في قرية أولاد حمام التابعة إداريا لمحافظة دمياط بمصر، في ١٣ كانون الثاني ١٩١٠ م، وقد تعلم في معاهد دمياط والزقازيق، إلى أن دخل كلية الآداب بجامعة القاهرة، لدراسة اللغة العربية، ولما تخرج في جامعة القاهرة عام ١٩٣٥ م، حصل على الدرجة الجامعية الأولى، وكان ترتيبه الأول في دفعته، تابع دراسته في الجامعة نفسها للحصول على الماجستير، فكان له ذلك عام ١٩٣٩، وكان موضوع دراسته في هذه الدرجة: "النقد الأدبي في كتاب الأغاني للأصفهاني"، ثم حصل على الدكتوراه في الجامعة نفسها كذلك عام ١٩٤٢، وكان البحث الذي قدمه لهذه الغاية بعنوان: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" تحت إشراف الأستاذ الدكتور طه حسين. وكان بعد حصوله على الدرجة الجامعية الأولى، وذيوع صيته في الذكاء، فتحت له أبواب العمل، فعمل حيناً في مجمع اللغة العربية، ثم عين معيدا في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وبعد حصوله على الدكتوراه عمل مدرسا في الجامعة نفسها، وتدرج في السلم الوظيفي من

أستاذ مساعد إلى أستاذ، ثم أصبح رئيساً لقسم اللغة العربية، وبعد ذلك أصبح أستاذاً متفرغاً، ثم أستاذاً غير متفرغ. وقد درّس في عدد من الجامعات العربية منها الجامعة الأردنية، وفيها كان لي شرف التلمذة على يديه، في قسم اللغة العربية، ما بين عامي ١٩٦٥-١٩٦٨. وبعد حين انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية، ثم أصبح أمينه العام، فنائباً للرئيس، ثم رئيساً للمجمع إلى أن توقف القلب النقي عن الخفقان عام ٢٠٠٥ م.

ومن هذه السيرة أعرف، كما حدثني أنا وثلة من زملائي في الجامعة الأردنية، أن له ولداً اسمه عاصم وبنينا اسمها رندة. وبالنسبة لي فقد كنت أحبه حبا جما، وأقدره تقديراً كبيراً، فكان نعم القدوة، في التواصل واللبف والبساطة والحنو على تلامذته، وقد غمرني بلطفه عندما اكتشف اهتمامي باللغة العربية، فعندما كان يدخل غرفة الدرس، يشرح قليلاً من الموضوع الذي سيتحدث فيه، ثم يلتفت، فيسأل: فين ياسر؟ فأجيبه على الفور، ها أنا ذا يا دكتور! فيسخر مني زملائي ربما غيرة وحسداً. غير أنني لم أكن أدرك بقوة، رغم تقديري وحيبي الشديد للرجل، أنه عظيم إلى هذه الدرجة التي أدركها الآن. كان قد أملى علينا في هذه السنوات كتابه "المدارس النحوية" بينما كان ينتظر خروجه من المطبعة، وعلى الرغم من هدوئه ورزاقته وندرة كلامه، وإذا جالسته يكثر من الإصغاء، كان في محاضراته قوي الصوت، وتحس في نبرته الحماسة للفكرة التي يشرحها. وعندما طلب مني مرة الاطلاع عليه، أي على كتاب "المدارس النحوية"، وهو في ملازم معدة للطباعة، قال: خذها وسأهديك نسخة من الكتاب عندما يطبع، وقد منيت نفسي يوماً بهذا الإهداء، ولم أكن أصدق أن هذا سيحصل على الرغم من يقيني بأنه صادق، ولقد كدت أطير فرحاً يوم أن رأني بعد صدور الكتاب فأهداني نسخة منه، وكتب عليها بخطه العبارة الآتية: "لصديقي وتلميذي السيد ياسر إبراهيم الملاح. مع أصدق التحيات، شوقي ضيف ١٩٦٨/٦/١٠"، واليك صورة من هذه الجملة بخط أستاذنا الدكتور شوقي ضيف:

لصديقي وتلميذي
السيد ياسر إبراهيم الملاح
مع أصدق التحيات
١٩٦٨/٦/١٠ شوقي ضيف

يومها لم تتسع لي الدنيا: شوقي ضيف يهدي ياسر الملاح كتاباً من كتبه ١٩٩١؛ وإني الآن أقدر هذه الجملة الكريمة بما لا يمكن تصوره من كنوز الدنيا لأنها أضمن عندي من كل ذلك، وإني لأشعر الآن أنها كانت تدفعني إلى تحمل المسؤولية الكبيرة، لأكون صديقاً بحق لهذا العالم الجليل، وتلميذاً نجيباً يحمل رسالته، ولا بد من الجد والمثابرة لعلني أقرب من قمة هذا الجبل العملاق.

ثم انقطعت الاتصالات بيننا، أياماً وشهوراً وسنين عدداً، فعاد هو إلى القاهرة، وعدت أنا إلى فلسطين، ولم تسعفني ظروف الحياة والعملية والسياسية أن أفكر حتى في محاولة الاتصال به بأي صورة من الصور، غير أن ذلك الحلم بقي يدغدغ عواطفني إلى أن ذهبت إلى جامعة الإسكندرية، لدراسة الدكتوراه، فكنت أحلم صباح مساء أن يكرمني الله برؤيته أو يتحدث إليه، فكانت الفرصة الذهبية عندما قرأت في إعلانات الجامعة أن شوقي ضيف سيكون أحد المناقشين لأحد طلبة الدكتوراه في الجامعة، فأخذت أرقب ذلك اليوم، وأصبح شغلي الشاغل، حتى جاء ذلك اليوم، فرأيت واستمعت إليه بشغف ووفاء نادر، وعندما فرغ من المناقشة انتهزت الفرصة، وهو يمشي في بهو قاعة المناقشة، فحجّت إليه، وسلمت، ثم غمرني ببشاشته التي أعدها في وجهه، ثم قلت له: يا دكتور أتذكرني؟ أعرفني؟ فلم أجد لديه أي صدى لتلك الذكرى، أو المعرفة التي أدخرها لنفسه، ولعل هذا أمر طبيعي من أستاذ علم أعداداً كبيرة من مختلف أنحاء العالم، وبعد افتراق طال عشر سنوات، ولم أسمع منه يوماً سوى كلمة واحدة تحضنها ابتسامته ود ووقار وهي: دَرَسْتُكَ! ثم انتهى ذلك اللقاء السريع، ولم أعد

أراه، ولكنني كنت أتابع نشاطه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عبر وسائل الإعلام، إلى أن سمعت نبأ وفاته في عام ٢٠٠٥، فغمرني حزن عميق، وانتشلتني الذكريات الجميلة من أعماق هذا الحزن، وسألت الله له الرحمة والقبول الحسن والمغفرة.

لا تلمني، أيها القارئ الكريم، إن لمست في حديثي عنه آلام اللوعة ونيران العشق، لأن الرجل كان نعم الرجل الذي يملأ القلب والعين والعقل ولأن شرف معرفته لنعم الشرف. وإنما كان ذلك كذلك، لأنه كان عالماً متواضعاً محباً لتلاميذه مشجعاً لهم، ولهذا زرع في عقولنا وقلوبنا شيئاً من خلقه، وعلمه الغزير، وهدوئه، وعفة لسانه. طلبنا منه يوماً، وأنا ونفر من زملائي وزميلاتي، أن يمشي معنا في ظلال أشجار الصنوبر المتعانقة على جانبي الطريق الموصل إلى مقصف الجامعة، لتشرب معا شيئاً من القهوة أو الشاي أو العصائر، ولنفتخر بأننا جالسنا يوماً شوقي ضيف، فقبل الدعوة، وسرنا إلى هناك. كنا، ونحن نمشي معه، نكاد نطير من الفرح، لأنه استجاب لدعوتنا، وبعد أن انتهت الجلسة الجميلة أوصلناه إلى مكتبه، واستأذناه عائدتين إلى حرم الجامعة، لتتابع مسيرتنا العلمية. ما أطول الحديث عن أخلاقه الرائعة!!! زرتة يوماً في مكتبه، فإذا به يتأهب للخروج منه، فلم يشعرني بذلك، وقد كنا نحن نستطيب مجالسة الأساتذة، وكنا نباهى بذلك، أمام بعض زملائنا، انظروا ما قد جالسنا الدكتور شوقي! أو الدكتور السمرة! أو الدكتور ياغي! ثم طلب مني أن أقعد، فعرض علي أن أمشي معه، فسرتت بهذا سرورا عظيماً، ولم يذكر لي يوماً وجهته التي سينتهي إليها، فإذا بالرحلة تقودنا إلى مكتب الدكتور ناصر الدين الأسد... رئيس الجامعة... فذبت يومها من الخجل... وقد لاحظ هو ذلك، فما كان منه إلا أن قال: يا ناصر معي ضيف عزيز، فزاد قوله حرجي وخجلي، فحاولت الاستئذان لأخرج، غير أنه قال لي: اقعد، فقعدت، وأنا أغرق في حرج شديد، فتعلمت من تلك الجلسة أموراً لم تخطر لي ببال... نهض الدكتور ناصر الدين من كرسيه وانطلق إلى الدكتور شوقي مرحباً مبتسماً، ثم أمسك بمعطف الدكتور شوقي يخلعه عن جسمه، ليعلقه على المشجب، فعجبت لهذا السلوك الجميل من رئيس الجامعة مع أستاذنا، فتساءلت، ففكرت بعدئذ أن الدكتور ناصر الدين الأسد هو تلميذ أستاذنا الدكتور شوقي ضيف. ولا يمكن أن أروي للقارئ الكريم كل ما أعرفه عن شوقي ضيف، لأن هذا سيطول، ولعلي أدخره إلى مناسبة أخرى.

(٣) سادن العربية :

السِدانة هي الخدمة لشيء مقدس، ولذلك كانت العرب تتنافس، فيما بينها، على سِدانة البيت، ولقد نبعت سِدانة العربية عند شوقي ضيف من وهج الانتماء لهذه الأمة، وحضارتها، ولغتها، فقد كان، رحمه الله، وأسكنه فسيح جناته، شديد الغيرة على الدين والحضارة العربية واللغة العربية. ولم تكن سِدانته للعربية مقتصرة على الحماسة الشديدة لها، بل كانت مقترنة بالفعل الخالد الذي خطه بيمينه، إذ بلغت مؤلفاته إلى ما يزيد على خمسين كتاباً، ويعتبر كل كتاب منها عملاً موسوعياً لاشتماله على ما وجد في التراث العربي من كتب في الباب الذي يتحدث فيه. ولذلك، كنا طلبة، فلا نجد أمامنا مسعفاً لنا في إعداد البحوث الجامعية إلا كتب شوقي ضيف، ثم أصبحنا أساتذة في الجامعات، فلم نجد ما تقدمه لطلبتنا من مراجع إلا كتب شوقي ضيف، ونحن الآن عندما نحاول إعداد كتبنا للنشر، فلا نجد إلا كتب شوقي ضيف، وأغلب الظن أن ما قدمه للعربية سيبقى تتناقله الأجيال لقرون قادمة.

وعندما أتذكر الآن أنه لم يكن يخاطبنا بالفصحى إلا في قاعة الدرس، وقد كنا لا نستخدم في خطابنا معه إلا الفصحى، أساءل عن هذه الظاهرة، فلا أجد تفسيراً واضحاً لها إلا أنها القناعة عنده بأن الفصحى إنما هي لغة خطاب، في المناسبات العلمية والرسومية الجادة، كالدرس والخطب والمحاضرات، وربما غلب هذا على الكثرة الكاثرة من الناس في تلك الفترة من الزمن، وما زال، وإن من يصير على استخدام الفصحى في الحياة نفر قليل من المتقنين الذين أخذوا أنفسهم بالحزم والعزم، على الرغم من استفراب الناس لما يفعلون. وعلى الرغم من هذا الأمر، فقد كان له أسلوبه الكتابي المميز، فهو أسلوب لا ينتمي إلى المزاوجة أو السجع ولكنه أسلوب مترسل يمكنك استخلاص مزاياه الخاصة به ويمكنك الحكم عليه بأنه أسلوب شوقي ضيف. ومن سمات هذا الأسلوب :

(١) استخدام المفعول المطلق: يكثر في أسلوبه استخدام المفعول المطلق نحو قوله: "ونعتقد اعتقاداً أن ابن المعتز إنما اكتفى بفنون خمسة من محاسن الكلام، رأى أن يخصها باسم البديع، لأنها فعلاً الفنون التي كانت موضع أخذ ورد... (البلاغة: تطور وتاريخ ص ٦٩)

(٢) التصوير: يلمس القارئ لكتب شوقي ضيف ميله إلى التصوير الجميل لتوضيح الفكرة التي هو بصدد تحليلها نحو قوله: "... فإذا

المباحث البلاغية تشبه غابة بل دغلا ملتفا لا يمكن سلوكه إلا بمصاييح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة، وهي مصاييح ما تتي ترسل إشعاعات تخنق خلايا النظرية في الدغل الكثيف. " (البلاغة : تطور وتاريخ ص ٣١٣)

٢) الدقة في التوبيخ والتنسيق : وهذا واضح في الأبواب والأقسام والفصول التي يلمسها القارئ في كتبه، فكتاب واحد من كتبه هو (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) الذي تزيد صفحاته على ٥٠٠ صفحة، يمكن اختصاره واستيعابه في ثلاث كلمات، هي: الصنعة والتصنيع والتصنع، وهكذا في أي كتاب من كتبه.

٤) صحة النحو والإملاء: من العجيب أننا إذا قرأنا كتابا من كتبه فلن نعثر على خطأ لغوي أو إملائي أبدا، ونحن نقرأ لآخرين من كتاب العربية فنعثر على شيء من هذا، ولهذا فإن كتبه من هذه الناحية تمتاز على غيرها بالضبط اللغوي والإملائي صونا للغة في وجهها المكتوب.

٥) مما لا شك فيه أو بلا شك أو ومن غير شك أو وليس من شك: يكثر في أسلوبه ترداد هذه العبارات نحو قوله: " ومما لا شك فيه أن الفارسية كانت منتشرة في أحاديث اللغة اليومية... " (الفن ومذاهبه في الشعر ص ١٢٣)، ونحو قوله: " ... ومن غير شك كان دخول هذه الكلمات الأعجمية في الشعر العباسي أوسع منه في الشعر الأموي... " (الفن ومذاهبه في الشعر ص ١٢٤)، ونحو قوله: " وليس من شك في أن هذا يدل - من بعض الوجوه - على ما أصاب العقل العربي من تصنع... " (الفن ومذاهبه في الشعر ص ٢٧٩) .

٦) وأكبر الظن: كما يكثر في أسلوبه ترداد هذه العبارة نحو قوله: " وأكبر الظن أن في ذلك كله ما يوضح أن العلاقة كانت وثيقة بين الشعر والثقافات الدخيلة... " (الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٤١) .

٧) والحق أن أو ومن الحق أن: كما يكثر من ترداد هذه العبارة نحو قوله: " والحق أن هذه الصور جميعا التي وقف عندها الأمدي ليست قبيحة... " (الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٨) .

٨) بدء الفقرة بـ (لعل): كما يكثر في أسلوبه بدء الجملة بـ لعل على نحو قوله: " ولعل في ذلك ما يصور - من بعض الوجوه - ما انتهت إليه صنعة الشعر في هذا العصر من رقي وازدهار... " (الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٤٨) ، وكأنه يستخدم (لعل) لبيان خلاصة الفكرة التي عرضها.

ولو شئنا أن نتبع هذا الباب في كتبه لوجدنا مميزات أخرى كثيرة بحيث تجعل منه أسلوبا متميزا يستحق الدراسة، أما لماذا كان له هذا الأسلوب؟ ومن تأثر هو من الكتاب؟ فهذه قصة أخرى تحتاج إلى بحث مستقل، غير أن الخلاصة التي وصلنا إليها، في هذا الباب، أنه كان صاحب عقل ذكي مكن له من هذا التمييز الأسلوبي في الكتابة العربية، فخرج علينا بأسلوب ناصع البيان والفصاحة.

وعندما ينظر الدارس إلى الكتب التي ألفها خدمة للعربية، وخدمة للحضارة العربية والإسلامية، يتساءل عن الجهد الذي بذله الرجل في سبيل هذا الإنتاج، فأى عزم وتصميم واستغلال للوقت كان وراء هذا الجهد؟ إنه عزم الجبارة والعباد المنقطعين للعلم، فإذا تفحصت كتابه عن تاريخ الأدب العربي تجد التراث الأدبي والعلمي في هذا الميدان، كأنما نظم بخيط فكري متناغم، ودقة متناهية، وموازنات تجعلك قادرا على فهم الحركة الأدبية والعلمية العربية، والمؤثرات فيها وما لها وما عليها. وكذلك الأمر في مؤلفه عن البلاغة العربية، أو المدارس النحوية، أو النقد الأدبي، وقد قاد هذا إلى تقدير الناس له، فحصل على جوائز تقديرية كثيرة، داخل مصر وخارجها.

وسأحاول، في ما يأتي من صفحات، اقتطاف بعض الرياحين العلمية التي ازدان بها بستان شوقي ضيف الكتابي في ما قدمه للعربية من مصنفات أصبحت معالم واضحة في طريق كل مختص في العربية، ومحطات لا يستطيع السير إلا بالتزود منها، والاستئارة بنورها، لما تحويه من علم غزير، وأسلوب يتسم بالبيان والبلاغة والقوة، وسأقلب صفحات هذه الرياحين نائرا عبرها الفواح على القارئ الكريم ليعرف أن هذا الرجل سادن للعربية أي سادن، وأنا، إذا أخلصنا النية للعربية، قادرون على خدمتها كما خدمها شوقي ضيف.

٤) تاريخ الأدب العربي:

هذا الكتاب من روائع شوقي ضيف في خدمة العربية، فقد كان في عشرة أجزاء متفاوتة في الأحجام، وبلغ عدد صفحاتها أكثر من خمسة آلاف صفحة، وفيه نظم النشاط الأدبي العربي من شعر ونثر بخيط زمني يمتد من الجاهلية إلى العصور الحديثة، وهي على النحو

الآتي:

- ١) العصر الجاهلي، ويتحدث فيه عن الجاهلية وأدبها الشعري والنثري وأهم الأدباء.
- ٢) والعصر الإسلامي، ويتحدث فيه عن الإسلام وصراعه مع المشركين والأدب الإسلامي وأدبائه.
- ٣) والعصر العباسي الأول، ويتحدث فيه عن الثورة العباسية والأدب العباسي وأشهر أدبائه حتى ٢٢٢هـ.
- ٤) والعصر العباسي الثاني، ويتحدث فيه عن المجتمع العباسي المترفع، وارتباط الأدب والأدباء بذلك، بعد ٢٢٢هـ، مما قاد إلى ضعف الحياة السياسية ومهد إلى تفكك الدولة إلى دول وإمارات.
- ٥) وعصر الدول والإمارات: الجزيرة العربية والعراق وإيران، ويتحدث عن الأدب والأدباء في هذه المناطق من عصر الدول والإمارات.
- ٦) وعصر الدول والإمارات: الشام، ويتحدث فيه عن الأدب والأدباء في منطقة الشام من هذا العصر.
- ٧) وعصر الدول والإمارات: مصر، ويتحدث فيه عن الأدب والأدباء في مصر من هذا العصر.
- ٨) وعصر الدول والإمارات: الأندلس، ويتحدث فيه عن الأدب والأدباء في الأندلس من هذا العصر.
- ٩) وعصر الدول والإمارات: ليبيا وتونس وصقلية، ويتحدث فيه عن الأدب والأدباء في هذه المناطق من عصر الدول والإمارات.
- ١٠) وعصر الدول والإمارات: الجزائر والمغرب الأقصى وموريتانيا والسودان، ويتحدث فيه عن الأدب والأدباء في هذه البلدان من عصر الدول والإمارات.

وفي كل كتاب من هذه الكتب، أخذ نفسه بمنهج صارم في البحث والتدقيق، والإحاطة بكل ما يعتقد أن له صلة بالإنتاج الأدبي. وستجده يبدأ الكتاب من هذه الكتب بالحديث عن السياسة والمجتمع، فيختار قضايا توضح للفرائد خريطة العصر الذي يتحدث عنه، والصراعات السياسية والفكرية التي طفت على سطح حياته، وبعد أن تنهي قراءته يتملك شعور من عايش أحداث هذه الفترة، واستوعب صراعاتها السياسي والمجتمعي. ثم يثني بالحديث عن الثقافة بما فيها من حركة علمية تختص بالعلوم الإسلامية، وكذلك ما يختص بعلوم الأوائل، وما يختص به العصر المتحدث عنه من نشاط متميز في أحد العلوم التي نبغ فيها علماء تركوا فيها آثارا علمية نادرة، كالجغرافيا أو التاريخ أو الفلسفة أو التفسير أو الحديث... الخ. وكأنه يريد أن يوضح، لفرائد الكتاب، أن ما ستقرؤه في صفحات هذا الكتاب من أنشطة شعرية ونثرية، إنما هي خلاصة هذا التفاعل المدهش بين المجتمع وسياسته، من جهة، وبين الحركة الفكرية الإسلامية، وبين ما وفد إليها من علوم وثقافات نتيجة الدخول في الإسلام، أو الاحتكاك السلمي أو الحربي مع الأمم الأخرى، من جهة أخرى.

وبعد أن يوطد لفكرته هذه، ينطلق إلى الغوص في النشاط الأدبي الشعري والنثري في ذلك العصر، بادئا بالشعر والشعراء، وموزعا هذا النشاط الفني على مجالين: مجال أعلام الشعر والشعراء، ثم مجال طوائف من الشعراء، موزعين على أغراض الشعر العربي العامة، من غزل ورتاء وطبيعة، وغير ذلك من الأغراض الشعرية التي تتصل بفترة معينة من التاريخ الأدبي العربي. ثم ينطلق إلى النثر وألوانه من الرسائل، والمقامات، والرحلات، والمناظرات، فيقف عند بعض الأعمال النثرية الخاصة بالفترة التي يؤرخ لها. وفي أثناء عرضه لهذه الحركة الأدبية والشعرية، يزنها بموازين النقد التي صاغها في رائعته عن الشعر والنثر، وهما كتاباه: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" و"الفن ومذاهبه في النثر العربي".

والحق أن اقتناء هذه الرائعة، في تاريخ الأدب العربي، قد غطى على ما كتبه الآخرون، في هذا المجال، من بروكلمان في كتابه "تاريخ الأدب العربي"، وكذلك غيره من المستشرقين، وكذلك على ما كتبه أبناء العربية، كعمر فروخ في كتابه تاريخ الأدب العربي، وجورجي زيدان في كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية" الذي أشرف هو، أي شوقي ضيف، على أحدث طبعة منه، وعلى ما كتبه أستاذة طه حسين في هذا المجال. فهذا الكتاب الذي دونه شوقي ضيف أوسع في الزمان والمكان، وأغزر في المادة العلمية، وأدق في المنهج، بحيث تشعر، عند قراءتك له، كأنما وضع المؤلف التراث الأدبي العربي بين يديك، مرة واحدة، وفق رؤية نقدية جادة، ونظرة عميقة في العلاقة بين الأدب وحركة الحياة الاجتماعية والسياسية، لتخرج بنتيجة واحدة هي أن خلاصة حياة المجتمعات الإسلامية في الفن الأدبي جمعت بين يديك في دقات هذه المجلدات.

٥) نظريته في الفن ومذاهبه :

كان لإحاطة شوقي ضيف الفريدة بالتراث العربي فضل في تمكينه من وضع نظرية نقدية شاملة حول الفن الأدبي عند العرب. ومعروف أن الفن الأدبي العربي في الأغلب يقتصر على الشعر والنثر، ولهذا كان كتاباه المشهوران عن فن الشعر وعن فن النثر. أما كتابه الأول الذي كان خلاصة جهد علمي جاد للحصول على درجة الدكتوراه، وإشراف الدكتور طه حسين، فهو: " الفن ومذاهبه في الشعر العربي ". وتقوم نظريته التي صاغها في هذا الكتاب على مفهوم أن الشعر صناعة أو صناعة، على ما قرر ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء، والناس، أي من يعنى به من الشعراء والمتذوقين له، ثلاث طوائف: أصحاب مذهب الصناعة، وهؤلاء هم وشعرهم يعدون من الطبقة العليا، في فهم الشعر، وتذوقه، ونسجه. والشعر الممتاز عندهم يقع في مذاهب وفق اختلاف طبائع البشر ومواهبهم، وعلى الرغم من هذا الاختلاف الذي لا ضير فيه لأن البشر مختلفون في هذه الطبائع، فهم متحدون في الإيمان بجودة الشعر وصياغته التي يمثل قيمتها الشعر الجاهلي، ومن نهج نهجه واحتذى صنعته من شعراء العصر الأموي والعباسي، فأبدعوا في هذا المذهب إبداعا منقطع النظير، من أمثال بشار بن برد وأبي نواس، وكذلك أولئك الذين وجدوا في صناعة الشعر مهنة فنية دقيقة، فينحت الشاعر منهم القصيدة كما ينحت القطعة الفنية الجميلة، وينسجها نسجيا بديعا كما تنسج البرود المطرزة المشاة والمزركشة على نحو ما كان عند أبي تمام والبحري. يقول شوقي ضيف شارحا فكرته في الصناعة الشعرية: "...إنما ندعو إلى ذلك حتى يرسخ عندنا هذا المبدأ الذي يجعل الشعر صناعة وفنا تحاكي فيه المثل الفنية الممتازة التي كل مثال منها على صفات وخصائص تعب أصحابها في التعبير عنها... كل نموذج فني هو عمل متعدد الصفات قد شقي صاحبه في إخراجها، وبذل فيه كل ما يستطيعه من جهد... بحيث يمكن أن نقول: إن الصناعة أول مذهب يقابلنا في الشعر العربي... فقد كان الشعراء أنفسهم يلتزمون لوازم كثيرة في صناعة شعرهم، وكان الناس من حولهم يراقبونهم ويشجعونهم على التقوق والإجادة، وكأنما كان هناك ذوق عام يدعو الشعراء إلى التجويد والتحبير...". (الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٢-٢٣)

وثاني هذه الطوائف أصحاب مذهب التصنيع الذين تأثروا جو التصنيع والزخرفة والزينة التي ازدهت بها الحياة العباسية في عهود المأمون والواثق، وغيرهم من الوزراء والأعيان، لأنهم، أي الشعراء، كانوا ينادمونهم، ويحصلون على الأموال الطائلة منهم، فأخذ هذا التصنيع في الحياة المادية يتسرب إلى حياتهم الفنية، فتتحول القصائد عندهم إلى زخارف بديعة، كما يصف هذا أبو تمام (- ٢٢٢هـ) في إحدى قصائده حيث يقول:

خَذُّهَا مُتَّقَمَةً الْقَوَائِي، رَبُّهَا لِسَوَائِبِ النَّعْمَاءِ غَيْرُ كَنُودِ
حَدَاءِ تَمَلُّاً كُلُّ أَذُنٍ حَكْمَةً وَبِلَاغَةٍ وَتَدْرُ كُلُّ وَرِيدِ
كَالْدَرِّ وَالْمَرْجَانِ أُلْفَ نَظْمُهُ بِالشَّدْرِ فِي عِنَقِ الْكَعَابِ الرُّودِ
كَشَقِيقَةِ الْبُرْدِ الْمُنْمَمِ وَشَيْهِ فِي أَرْضِ مُهْرَةَ أَوْ بِلَادِ تَزِيدِ

(الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٢٧)

فالقصيد، عند أبي تمام، تسيق وزينة خالصة، وخلي أنيق وشي مرصع، كالتقلايد التي يصوغها الصانع الحاذق، ففي كل ناحية من القلايد در ومرجان وشذور من الذهب، وهكذا كانت تصنع القصائد، بل هي كبرود مهرة أو تزيد المنمنمة بالوشي والمنمقة بالنقوش، فهي إذا صنعة معقدة بل تصنيع مبالغ في التجويد. وقد وصل هذا الفن بعد من ابتدأه من الشعراء، كمسلم بن الوليد، إلى ذروته عند أبي تمام، ليصبح مذهباً فنياً جديداً أطلق عليه أصحابه اسم مذهب البديع. وعلى الرغم من هذا كله، جاء الشعر، على أسننة هؤلاء الذين سلخوا مذهب التصنيع، شعراً جميلاً قوياً، بل يذهب بعض النقاد إلى أنه يمثل ذروة الإبداع في فن الشعر العربي، ولولا أن الذوق العربي العام لم يرق له مثل هذا الشعر، فوقف في اندفاعه عند رواده، أي عند أبي تمام، وعند من لف لفه من الشعراء، لكان للشعر العربي على أيديهم شأن آخر في التقدم والإبداع.

وثالث هذه الطوائف، أصحاب مذهب التصنيع الذين وجدوا أنفسهم، أمام التطور الحضاري الذي أصاب الناس في العصر العباسي الثاني، ينساقون إلى ألوان من التعقيد في صياغة النماذج الفنية، والناظر إلى الحضارة العربية، بعد القرن الثالث الهجري، يرى عقم هذه الحضارة، أو ضعفها عن الإتيان بجديد، وأخذت تعنى بالشكليات والتعقيد في شؤون الحياة، فالدولة تضعف، ولكن تكثر الألقاب الطنانة

للملوك والقادة، وعندما ينشغل العقل البشري بالشكليات، فإن هذا لا يدل على النمو في الحياة والسياسة، ومختلف جوانب الحياة، ولكنه يدل على الفراغ والعناية بالأشكال والابتعاد عن جوهر الأمر وحقيقته. وبانتقال هذا الحال إلى الشعر وفن القول، وتبنيه أنواعا من ألوان التصنيع التي ثبتت على حالها، دون تجديد أو ابتكار، أصبحت هذه الألوان غير جميلة، وغير ممتعة، بل أصبحت مكررة ومملة، ولا تحمل معنى، وكأن هذه الألوان أصبحت مجرد زينة لا تتضمن عقلا ولا فكرا. (الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٢٧ وما بعدها)

ومن أطرف ما كتبه شوقي ضيف في وصف هذه الحالة المتردية لمستوى فن الشعر قوله: " ... على أننا لا نكاد نترك القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، حتى يهجر الشعراء الفلسفة، ويصبح الأدب أدب ألفاظ وحس فقط، لا أدب أفكار وثقافة؛ فالشعراء لا يحاولون أن يوازنوا بين حسن التفكير وحسن التعبير، وأن يأتوا بالمحسنات البديعية مقرونة بالأفكار الفلسفية، كما هو الشأن عند أبي تمام. وهو نوع من إجداب الحضارة العربية والعقل العربي." (الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٨٨) ثم يتابع هذه الفكرة في موطن آخر معللا الأسباب الكامنة وراء هذا السقوط الفني في الشعر العربي، فيقول: " لا نصل إلى القرن الرابع حتى نحس بأن الشعر العربي جامد لا يتحول عن الموضوعات والمعاني القديمة، وأكبر الظن أن من أهم أسباب هذا الجمود... أن العرب لم ينحوا في شعرهم نحو فلسفيا أو علميا... أيضا أنهم لم يطلعوا على شيء من الأدب اليوناني فاستمروا يعيشون في شعرهم معيشة داخلية فيها نوع من القصور الذاتي، وقد خيل إليهم أنهم ليسوا في حاجة إلى مدد من الخارج، فحسبهم ما في شعرهم من جمال، على أن هذا الجمال سرعان ما أصابه الجمود في القرن الرابع وما جاء بعده من قرون، إذ ضل الشعراء طريقهم إلى تنوع أفكارهم...". (الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٩٢)

وهذه المذاهب الثلاثة ليست وفقا على أديب بعينه، أو على عصر بعينه، ولكن قد يغلب أحدها على مزاج عصر من العصور، ليصبح هذا المذهب أو ذاك طابع العصر كله، أو على مزاج أديب بعينه في فترة من فترات حياته الأدبية تبعاً لثقافته، والعصر الذي عاش فيه. وبصورة عامة فقد غلبت الصنعة على العصر الجاهلي والإسلامي والعصر العباسي الأول، وغلب التصنيع على العصر العباسي الثاني مع وجود أسراب منها في قليل من الأدب الجاهلي، كما هو معروف عن زهير وحوليائه التي كان يوجد فيها شعره وينخله تخيلا، وغلب التصنع على العصور التي تلت العصر العباسي الثاني أي من القرن الرابع الهجري وما بعده كالعصر المملوكي وغيره من العصور التي خبا فيها نجم السلطان العربي، وتبع هذا أن خبا نجم الشعر والأدب، فكان الشعراء يدورون في أفلاك الشعراء الممتازين الذين تتلمذوا على فئتهم، فلم يصلوا إلى تلك الذرى الفنية السامية، بل كانوا يحاولون ذلك، غير أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى مستواهم الفني، فسقطوا في التكلف والتصنع الذي التصق بحياتهم، فانسحب على فئتهم القول بعامه.

٦ شوقي ضيف والبلاغة العربية :

من روائع شوقي ضيف أنه خص البلاغة العربية بمؤلف نادر سماه " البلاغة : تطور وتاريخ "، وقد طبع لأول مرة في مطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥. وقد سار في هذا المؤلف، كذلك، سيرا موسوعيا فيحشد للظاهرة عناصرها المشرفة، ثم يسير بها سيرا تاريخيا دقيقا، بحيث يتضح للقارئ أن هذا العلم لم يولد دفعة واحدة، ولكنه بدأ خطواته الأولى في حين من الدهر العربي الجاهلي والإسلامي، ثم ما لبث اللاحقون أن أفادوا مما ورثوه، ومما أخذوه من العصور التالية وأممها، نتيجة احتكاكهم بتلك الأمم والشعوب وثقافتهم التي حملوها معهم، بعد دخولهم في الإسلام، أو مما ترجم من تلك الثقافات إلى العربية، حتى غدا علما معقدا، وفنا راسخا متعدد الأطراف والجوانب. ولعلنا نشرع الآن في رسم هذه اللوحة للبلاغة العربية، كما وضعها شوقي ضيف في كتابه الذي سلف ذكره، قبل قليل.

كان الفصل الأول عن نشأة علم البلاغة، وشوقي ضيف من الذين يجيدون الغوص في أعماق ظواهر اللغة العربية الفنية، لتتبع جذورها، ثم يأخذ بيد قارئه شيئا فشيئا، حتى يجعله يتسلق شجرة هذا الفن أو ذاك ليجد نفسه يقطف الثمار بيسر وسهولة. والنشأة لهذا العلم عاد بنا فيها إلى العصر الجاهلي، ثم تدرج إلى العصر العباسي، أو إلى أواخر القرن الثالث الهجري، فوضع بين يدي القارئ كماً لا يُستهان به من الأقوال والمصادر التي تناثرت فيها هذه الشذرات البلاغية. ففي العصر الجاهلي بسط لنا ما ثبت عن بلاغة العرب، وتوقفهم في صناعة الكلام، مؤكدا على هذا بأيات من القرآن الكريم، وبأقوال بعض فصحاءهم في بلاغة القرآن، على نحو ما نعرف عن قول الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول الأنداء عندما سئل عن القرآن فقال: " والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس

ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق" ، (البلاغة: تطور وتاريخ ص ٩) ولا ريب في أن من يصف القرآن بهذا الوصف يتربع في قمة البلاغة. وعندما جاء الإسلام نمت هذه المقدرة اللغوية عندهم بالقرآن، ودعاهم إلى تنبيه قلبا وقالبا، فكان منهم في هذا الأعاجيب البلاغية شعرا ونثرا.

كانت الحياة في فترة الجاهلية والعصر الإسلامي تتسم بالبساطة واليسر، ولذلك كانت جذور البلاغة فيها بسيرة، وعندما تعقدت الحياة وأواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي، نمت الملاحظات البلاغية نموًا جعلنا نلتقطها من كتب العلماء في هذه الفترة بعد أن كنا نتصيدا من أفواه الناطقين. وقد لفت المؤلف أنظارنا إلى أن أرباب البلاغة في هذه الفترة كانوا من الشعراء، والخطباء، وكتاب الدواوين، والمتكلمين، واللغويين، وثبت في أذهاننا أن من مظانها المهمة في هذه الفترة " مجاز القرآن" لأبي عبيدة معمر بن المثنى (٢٠٨هـ)، وصحيفة بشر بن المعتمر (٢١٠هـ)، والبيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥هـ)، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٢٧٦هـ)، وغير هؤلاء الذين نجد في كتبهم بداية تشكل المصطلحات البلاغية وأفنانها، والأفكار البلاغية التي أعدت للمرحلة التي وجدت فيها الكتب البلاغية الصرفة (البلاغة: تطور وتاريخ ص ص ١٩-٦١). ويشير المؤلف إلى نقطة مهمة جدا، هي أن أرباب البلاغة في هذا العصر، وهم من ذكرناهم قبل قليل، قد اشتركوا في صناعة أسلوب جديد في الكتابة العربية، سماه هو الأسلوب المولد الذي يمتاز بالنصاعة والدقة في اختيار الألفاظ وبث المعاني الجديدة فيها دون عوج أو تعقيد، وبعبير آخر، إنه أسلوب وسط يجمع بين جزالة اللفظ وسلاسته ووضوح معناه، مبتعدا عن ركافة الأسلوب العامي الدارج، وعن غرابة الألفاظ البدوية. (البلاغة: تطور وتاريخ ص ٢٠)

وبعد هذا العرض الدقيق المفصل لمرحلة نشأة البلاغة، ينقلنا المؤلف إلى مرحلة الدراسات البلاغية المنهجية، ويقف فيها وقفات متأنية عند عدد من كتب البلاغة المشهورة التي كانت أساسا لازدهار هذا العلم. ففي هذه المرحلة نراه يتناول كتابا مثل: كتاب البديع لابن المعتز (٢٩٦هـ) الذي كان البديع موضوعه الأساسي، وإنما كان تأليفه الكتاب ليثبت لأهل البديع أن ما يزعمون ابتداعه من فن البديع، إنما هو موجود منذ زمن بعيد في الشعر العربي (البلاغة: تطور وتاريخ ص ٦٧). ثم يقسم هذه الكتب إلى طوائف منها طائفة المتسلسة، أي الذين ترسموا خطوات الفلاسفة، وتأثروا كثيرا بكتابي فن الشعر والخطابة لأرسطو، مثل قدامة بن جعفر (٣٢٧هـ) وكتابه (نقد الشعر) (البلاغة: تطور وتاريخ ص ٧٨)، ثم طائفة المتكلمين وهم الذين انطلقوا من مفاهيم المتكلمين واعتنائهم بالقرآن وبلاغته وإعجازها، مثل كتاب (النكت في إعجاز القرآن) للرماني (٢٨٦هـ)، وكتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني (٤٠٣هـ)، وكتاب (إعجاز القرآن) للقاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) (البلاغة: تطور وتاريخ ص ص ١٠٢-١٢٠). ثم طائفة نقدية على أسس بلاغية ككتاب (عيار الشعر) لابن طباطبا (٢٢٢هـ)، وكتاب (الموازنة بين الطائيين) للأمدى (٣٧١هـ)، وكتاب (الوساطة بين المتنبئ وخصومه) للقاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) (البلاغة: تطور وتاريخ ص ص ١٢٢-١٢٩). ثم كانت أخيرا طائفة المتأدبين الذين عنوا بدراسة الشعر والنثر، وما يجري فيهما من صور البيان والبديع، ك (كتاب الصناعتين) لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ)، وكتاب (العمدة في صناعة الشعر ونقده) لابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ)، وكتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) (البلاغة: تطور وتاريخ ص ص ١٤٠-١٥٩).

ثم ينقلنا المؤلف إلى مرحلة ازدهار البلاغة التي وجد فيها ضالته في الحديث عن البلاغة وازدهارها، ولعل خير من وجده ممثلا لهذه المرحلة الكاتب الفذ عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة). ويرى شوقي ضيف أن هذا الكاتب كان له فضل وضع نظرية علم المعاني، ونظرية علم البيان وضعا دقيقا. أما النظرية الأولى فخصها بكتابه (دلائل الإعجاز) (البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٦١)، وأما النظرية الثانية فخصها بكتابه (أسرار البلاغة) (البلاغة: تطور وتاريخ ص ١٩٠). ثم يشرع المؤلف في تفصيل هذا الرأي وإيراد دقايقه التي بنى عليها موقفه. فأما بسطه الكلام في الكتاب الأول فخلاصته أن البلاغة الحقيقية تكمن في نظم الكلام، ولذلك فإن إعجاز القرآن يكمن في نظمه، ومن هنا نجد أن نظرية النظم التي أسهب في شرحها عبد القاهر تعد سيقا له في مسألة الأسلوب وربطها بالبلاغة، وهي من المسائل التي ينادي بها النقد الحديث، ولا عجب في أن نجد ثلة من علماء النقد اليوم يعكفون على قراءة كتابه، أي دلائل الإعجاز، من جديد، ويعملون على نشره بلغات كثيرة حتى تعم فائدته عالميا. ويبسط عبد القاهر في كتابه الثاني (أسرار البلاغة) نظرية البيان العربي من حقيقة ومجاز وجناس وسجع واستعارة، وغيرها من القضايا المتعلقة بهذا الموضوع. وبهذا كله، يتضح لشوقي ضيف، بل يترسخ في أعماقه أن عبد القاهر أعطى البلاغة العربية لونا جديدا من العمق والإبداع والحيوية ما لبثت أن فقدت

جمالها وعطاءها، بعد أن حولها السكاكي وغيره من البلاغيين الشكليين إلى معادلات باهتة من الفلسفة والمنطق. ثم يجمل لنا بعد هذا الجهد الخصب مرحلة الجمود في البلاغة العربية، ويتمثل هذا الجمود في إعجاب من أتى بعد عبد القاهر بما قدمه للبلاغة العربية، فعمد المعجبون إلى الدوران في فلك عبد القاهر ومن شابهه من البلاغيين من غير أن يضيفوا شيئاً ذا بال في الموضوع، وكان شأنهم أن يلخص أحدهم ما قاله عبد القاهر، أو غيره من عصر ازدهار البلاغة في مسألة ما من مسائل البلاغة، ثم يقوم أحدهم بشرح هذا الملخص، وهكذا ضاعت جهود الإبداع في الموضوع ما بين شرح وتلخيص، ثم يقوم أحدهم بوضع شرح للشرح، أو تلخيص للتلخيص، حتى غدا العمل في البلاغة حواشي وشروحا وتلخيصات لا تضر ولا تنفع، لأنها مكررة تكرارا يذهب بجمالها وقدرتها في التعبير عن حقيقة فن البلاغة (البلاغة: تطور وتاريخ ص ٢٧١).

وبعد هذه الرحلة الطويلة في حياة البلاغة العربية من النشأة إلى مرحلة الجمود، يصور لنا المؤلف البلاغة العربية شجرة كثيفة الأغصان والثمار، غير أنها، عندما لم يعد رواء العقل العربي النشط والمتوثب للحضارة وقمتها يسقي هذه الشجرة بمياهه العذبة، أخذت تجف أغصانها، وتوقفت عن العطاء الذي رأيناه عند عبد القاهر الجرجاني، وعند غيره من المبدعين في هذا الميدان الفني الجميل، وأخذ يفكر في إعادة نموها وازدهارها من جديد في العصور الحديثة، فاقترح اقتراحا بلاغيا لعله يصلح لإعادة الحياة للبلاغة العربية. ويتمثل هذا الاقتراح في أن أجدادنا لم يعنوا في بلاغتهم بدراسة الأساليب، وإنما كانت عنايتهم البلاغية جزئية تنحصر في اللفظة والجملة والصورة، وقد أدى بهم دورانهم حول ذاتهم إلى الجمود في العطاء الأدبي، حتى أصبح الأدب من شعر ونثر أشكالا وزخارف جوفاء خالية من الذوق والعقل والتفكير. وقد استطاع الأدباء المعاصرون أن يبدعوا ألوانا جديدة من الأدب، في الشعر والنثر، ففي الشعر صاغوا أساليب وفنونا جديدة، كالشعر القصصي والمسرحي، والشعر الرومانسي والاجتماعي، والشعر المرسل، أو الشعر الحر، كما أنهم أبدعوا في النثر أساليب جديدة كالتصوير والرواية والأقصوصة والمسرحية، فهذا كله محتاج إلى بلاغة جديدة تقوم على العناية بالأسلوب (البلاغة: تطور وتاريخ ص ٢٧٧). ولقد فتح عبد القاهر في هذا الباب كوة كان يمكن أن تتطرق منها البلاغة العربية إلى آفاق بعيدة، غير أن ما قام به خلفاؤه من قصر الاستفادة منه على التلخيص والشروح والدوران في الفكرة ذاتها، دون الإتيان بأي جديد، قد أضعف القدرة على الإبداع في البلاغة، حتى غدت عملا من الأنغاز والأحاجي الفارغة التي لا ترقى إلى إبداع مفيد في عالم البلاغة.

٧) نظريته في المدارس النحوية :

يندر أن تجد أستاذا للعربية يُعنى عناية قوية بكل فنون اللغة، من أدب ولغة، ونحو وصرف، وثقافة وبلاغة، ونقد وتاريخ ممتد من أعماق الجاهلية إلى العصر الحديث الذي يعيشه، ويحيط إحاطة نادرة بكل أماكن النشاط الأدبي واللغوي للعربية، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ويعرف المصنفات التراثية معرفة بصيرة، حتى كأن التراث العربي والإسلامي منظوم على رؤوس أصابعه، كما كان يقول لنا عنه الدكتور ناصر الدين الأسد، فهذه مزية نادرة في عصرنا، وهي تعيد إلى أذهانتنا صورة علمائنا الأفاضل الذين كانوا كذلك موسوعي المعرفة، حتى كأن الواحد منهم، عندما يتناول جانبا من جوانب المعرفة، تظنه، وأنت تقرأ ما كتبه في ذلك الجانب، كأنه المبدع الأول فيه. إن هذه المزية تجعلنا ننحسر على ما وصلنا إليه هذه الأيام، عندما نرى طالب العربية يتخصص في جانب من جوانب اللغة، وعندما يعرض له أمر في غير تخصصه، نراه يعلن، ببساطة، أنه لا يعرف في هذا الجانب، لأنه متخصص في كذا وكذا. ونحن لا نقض من منهج التخصص في جانب من جوانب اللغة، فهذا أمر محمود، ولكن معرفة شخصية اللغة، ومركزاتها الأساسية في التراث والقرآن والأدب والنحو والبلاغة، أمر لا مناص منه لكل متخصص في العربية، لأن اللغة جسد حي يصعب تجزئته.

وستحدث الآن عما قدمه شوقي ضيف في النحو، وسأقف عند رائعة من روائعه في هذا المجال، وهي كتابه الذي بعنوان: (المدارس النحوية). ولهذا الكتاب مذاق خاص بالنسبة لي، لأن مادته ألقيت على مسامعي وأنا طالب في المرحلة الجامعية الأولى، وعلى مسامع زملائي في قسم اللغة العربية بالجامعة الأردنية، بين أعوام ١٩٦٦ و ١٩٦٨، وكنت ألاحظ أستاذنا يعمل علينا مادته وهي في ملازم معدة للطباعة، وعندما صدر الكتاب أهداني نسخة منه، وكتب عليها كلمات جميلة أعتز بها طوال عمري.

كان الكتاب في ثلاثة أقسام : القسم الأول وخص به مدرسة البصرة، وخص القسم الثاني بالمدرسة الكوفية، وأما القسم الثالث

فضمنه حديثاً عن مدارس مختلفة، كالمدرسة البغدادية والمدرسة الأندلسية والمدرسة المصرية.

كان القسم الأول في خمسة فصول تضمنت قضايا كبيرة تختص بوضع النحو في البصرة، على أيدي أبي الأسود الدؤلي (- ٦٩هـ) وتلاميذه، من مثل نصر بن عاصم (- ٨٩هـ)، وعبد الرحمن بن هرمز (- ١١٧هـ)، ويحيى بن يعمر (- ١٢٩هـ)، وعنيسة الفيل (- ٩هـ)، وميمون الأقرن (- ٩هـ) (المدارس النحوية ص ١٢)، وعلى أيدي من تبع هؤلاء جميعاً ممن يطلق عليهم المؤلف أوائل النحاة، مثل عبد الله بن إسحق الحضرمي (- ١١٧هـ)، وعيسى بن عمر الثقفي (- ١٤٩هـ)، وأبي عمرو بن العلاء (- ١٥٤هـ)، ويونس بن حبيب (- ١٨٢هـ)، ثم انطلق يعرف برواد النحو العربي من البصريين مترجماً لكل واحد منهم ترجمة مختصرة، ثم أخذ يشرح بالتفصيل جهودهم التي خلدوها في النحو، كالخليل بن أحمد (- ١٧٥هـ) الذي اعتبره المؤلف صاحب عقل ذكي، ولهذا فهو يبعده واضع قواعد النحو والصرف، لأول مرة في تاريخ الحياة العقلية العربية (المدارس النحوية ص ٢٠)، ثم انتقل إلى الحديث عن تلميذه سيبويه (- ١٨٠هـ) (المدارس النحوية ص ٥٧)، وكتابه الكتاب الذي جمع فيه سيبويه أقوال الخليل في النحو، وبوبه تبويهاً دقيقاً جعله مصدراً للنحو العربي إلى أيامنا هذه، حيث لا يجزئ أي باحث أن يخرج عما وضعه في كتابه، وكأن الكتاب، كما يقول صاعد الأندلسي، ولد كاملاً فاشتمل على جميع علم النحو وأحاط بأجزائه كلها، فلا يُستغنى عنه أبداً في الدرس النحوي (المدارس النحوية ص ٦٠). وفي الفصول التالية فصل الكلام عن أعلام آخرين في نحو المدرسة البصرية، كالأخفش الأوسط (- ٢١١هـ)، وتلاميذه أمثال قطرب (- ٢٠٦هـ)، والجرمي (- ٢٢٥هـ)، والمازني (- ٢٤٩هـ) (المدارس النحوية ص ٩٤)، ثم عن المبرد (- ٢٨٦هـ) وأصحابه، أمثال الزجاج (- ٢١٠هـ)، وابن السراج (- ٢١٦هـ)، والسيرافي (- ٢٦٨هـ) (المدارس النحوية ص ١٢٢). وكان في وقته، عند كل مدرسة، يوضح الأسس التي قامت عليها، والمبادئ التي كانت تتخذها في دراسة النحو وتأصيله.

وأما القسم الثاني فقد كان في أربعة فصول تناول فيها نشأة المدرسة الكوفية، وخصائص هذه المدرسة في تقعيد قواعد النحو العربي، ومعروف أن أهم خاصية للنحو الكوفي الاتساع في الرواية والقياس، واتخاذ مصطلحات خاصة بهم تختلف عن مصطلحات المدرسة البصرية (المدارس النحوية ص ١٥٩)، ثم تناول، بعد هذه المقدمة، أعلام هذه المدرسة، وجهودهم في صياغة النحو العربي، كالكسائي (- ١٨٩هـ) وتلاميذه (المدارس النحوية ص ١٧٢)، والفراء (- ٢٠٧هـ) ونشاطه العلمي في تكوين الصورة النهائية لشخصية النحو الكوفي (المدارس النحوية ص ١٩٢)، وتعلب (- ٢٩١هـ) وأصحابه (المدارس النحوية ص ٢٢٤)، كأبي بكر محمد بن الأنباري (- ٢٢٨هـ)، ثم تحدث عن بعض الكوفيين المتأخرين الذين كان من أشهرهم أحمد بن فارس (- ٢٩٥هـ) مؤلف كتاب "مقاييس اللغة" المشهور (المدارس النحوية ص ٢٤٠).

وأما القسم الثالث فقد كان في ثلاثة فصول، كان الأول منها مختصاً بالمدرسة البغدادية وأعلامها، من أمثال الزجاجي (- ٢٣٧هـ)، وأبي علي الفارسي (- ٢٧٧هـ)، وابن جني (- ٢٩٢هـ)، والزمخشري (- ٥٢٨هـ) (المدارس النحوية ص ص ٢٤٥-٢٨٧). وكان الفصل الثاني في المدرسة الأندلسية وأعلامها، كابن مضاء القرطبي (- ٥٩٢هـ)، وابن عصفور (- ٦٦٢هـ)، وابن مالك (- ٦٧٢هـ)، وأبي حيان الأندلسي (- ٧٤٥هـ) (المدارس النحوية ص ٢٨٨-٢٢٦). ثم كان الفصل الثالث في المدرسة المصرية وأعلامها، من أمثال ابن الحاجب (- ٦٤٦هـ)، وابن هشام (- ٧٦١هـ) (المدارس النحوية ص ص ٣٢٧-٣٥٥)، واختتم هذا الفصل بالحديث عن نحويين متأخرين من المدرسة المصرية، كابن عقيل (- ٧٦٩هـ)، وابن الصائغ (- ٧٧٦هـ)، والدماميني (- ٨٢٧هـ)، والسيوطي (- ٩١١هـ) (المدارس النحوية ص ص ٣٥٥-٣٦٥).

وقد كان المؤلف يوازن بين أنشطة هذه المدارس موازنة ينفذ فيها إلى أدق التفاصيل والقضايا اللغوية والنحوية مما يشي بدقة وإحاطة نادرة. وبهذا الكتاب تستوي نظرية شوقي ضيف في المدارس النحوية، بحيث لا يمكن لباحث في النحو، أو في العربية بعامة، الاستغناء عن هذا الكتاب، الذي جمع النشاط النحوي النظري والعملي في اللغة العربية، جمعاً مفيداً مختصراً يوفر على الباحثين جهداً كبيراً في الملمة المادة من مظانها الأصلية المطبوعة والمخطوطة. وقد كانت عنايته بهذا الجانب من اللغة تعبيراً عن نشاط العقل العربي، وعن دقة إنجازاته في هذا الجانب الفني والعقلي من اللغة العربية، وهو بذلك يرد على أولئك المستشرقين (مثل رينان) الذين يصمون العقل العربي بالتخلف وضعف القدرة على إنتاج علم لغوي كهذا، فأخذوا يشرقون ويغربون في اتهام النحاة بسرقة هذا النشاط اللغوي المذهل من السريان تارة،

أو من اليونان تارة أخرى، أو من الهند تارة ثالثة، وليس بين أيديهم دليل واحد يمكن أن يصل إلى درجة الحقيقة التي لا تدحض، وإنما كانت أقوالهم تخريصاً محضاً وافتراءً ظاهراً يقصد إلى الإساءة للعرب والمسلمين من منطلق عنصري بغض لا غير.

٨) الخاتمة :

أما بعد، فإن ما قدمه شوقي ضيف للعربية، لم يقتصر على ما أسلفنا الحديث عنه من روائع التصانيف، فقد كان ما ذكرناه درراً مختاراً من درره الكثيرة، ولكنه زاد على هذا الكثير الكثير. ففي الدراسات القرآنية كانت له جولة، وهي بعنوان: (الوجيز في تفسير القرآن الكريم)، وكفى بالحديث عن القرآن داعماً للعربية ونصيراً، لأن القرآن هو النبع الصافي الذي لا بد لكل متصل بالعربية أن يشرب من مياهه العذبة، دون كلل أو ملل، ولأنه حفظ العربية من أي تمزق أو ضياع، ولولا القرآن لأصاب العربية ما أصاب غيرها من اللغات، ولكن الله سخر لها القرآن فحفظها من كل سوء.

وله دراسات نقدية مهمة كذلك في الأدب العربي القديم، والأدب العربي الحديث، ككتابه المشهور (التطور والتجديد في الشعر الأموي)، وكتابه (البارودي رائد الشعر الحديث)، وكتابه (شوقي شاعر العصر الحديث). وله في البحث الأدبي كتابه المشهور (البحث الأدبي: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره)، وفي النقد الأدبي العربي له كتابه (في النقد الأدبي)، وغيره من الكتب النقدية. وله في الدراسات اللغوية عدة كتب منها (تيسيرات لغوية)، و (تحريفات العامية للفصحى). وله في سلسلة نواغ الفكر العربي دراسة عن (ابن زيدون)، وله في سلسلة فنون الأدب العربي مجموعة كتب تناول فيها الحديث عن مجموعة من فنون الأدب العربي، كالرثاء والمقامة وغيرهما، وله في التحقيق باع طويلة كذلك، فقد حقق كتاب (المغرب في حلى المغرب لابن سعيد)، وكتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبي. وله في سلسلة أقرأ مجموعة كتب ككتابه (البطولة في الشعر العربي). (لمعرفة المزيد عن مؤلفاته، انظر: تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات الأندلس ص ٥٥١).

وشوقي ضيف فضل لا يُنسى أبداً في صناعة ثلة من التلاميذ الذين يفتخرون بأنهم كان لهم حظ التلمذة على يديه، فقالوا هذا الشرف من أبوابه الواسعة، وإني لأفتخر أن أكون واحداً منهم. ويبدو أن التلمذة على يدي شوقي ضيف ليست أمراً عابراً، بل إنها تضعك وضعا قويا في خدمة العربية والغيرة عليها، فقد كان له، رحمه الله، لمسة السحر على تلاميذه، فبمجرد انخراطك في هذا السلك، أي سلك التلمذة على يديه، تتحول إلى فارس من فرسان العربية قوة وإخلاصاً ووفاء لهذا الأستاذ العظيم.

المراجع والمصادر :

- ١- شوقي ضيف، البلاغة: تطور وتاريخ، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٥
- ٢- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (١-١٠)، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٣-١٩٩٠
- ٣- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٥
- ٤- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٤٦
- ٥- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٨
- ٦- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف بمصر، ١٩٥٧
- ٧- الزبيدي الأندلسي، طبقات النحويين والمغويين، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٣
- ٨- ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨
- ٩- أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٤
- ١٠- أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥